الطابع العلمي في التعليم الحديث[1]

في مثل هذا الموقف الجليل تبادر الى الذهن مسائل جمة تمضُّ العقل وتقضُّ المضجع الوثير وتستولي عليه حيرة فكرية تخطُّ في عرض الفضاء علامة استفهام كبيرة

***

ايها المحفل الكريم : انقضى القرن التاسع عشر وانقضى بانقضائه عهد التفاؤل والتثبت . وحلَّ القرن العشرون فاذا هو خيبة للآمال تنطوي على حيرة فلسفية وقلق اجتماعي. كشف علماء القرن التاسع عشر عن طائفة من نواميس الكون وحقائق العلم فبنوا عليها فلسفة ميكانيكية مادية ترى في هذه النواميس وتلك الحقائق كلمة الطبيعة الأخيرة . وشيَّدوا على تأثيرها مجتمعاً يحسب التحكم والانكار واين العيش حضارة وثقافة . وانطلق القرن العشرون من طالع الشيب يحمل في طياته سرَّ الانقلاب . ففي الآراء العلمية تحوُّل . وفي العقائد الاجتماعية تطوُّر . وفي النفس الانسانية قلقٌ واضطراب . لقد انزلنا الآلة منزل المعبودات . وبتنا نحسب كلَّ تحوّل سريع ارتقاء . ورحنا نعتقد ان كلَّ حركة دليلٌ على الحياة . على ان الذين يستطيعون ان يخلوا الى انفسهم في هذا الاضطراب الفكري الشامل والاندفاع النفسي المتير يقولون في روية ودعة : لن يكون الارتقاء حركة سريعة فقط . انما هو حركة في جهة معيَّنة . والحركة في جهة معيَّنة تقتضي غرضاً . فما هو غرضنا ؟

هذا هو السؤال ! اتطلب المزيد من القوانين الاجتماعية والسياسية ام نرغب في تقليلها ؟ أالى توسيع نطاق الحرية نرمي في مساعينا أم الى تضييقه ؟ هل نجد السعادة في الحياة الحرّة والعودة الى احضان الطبيعة ام نحن على خطإ اذا طلبنا الحياة السعيدة على الاطلاق ؟ هل نكبت العواطف ونخضعها لأحكام العقل والضمير فنرتقي على اخضاعها الى ذرى التقشف ، او نقبل على آداب الحيوانات الحرة في الحقل الطلق رغبة في اطلاق الحرية للنفس في التعبير عن خوالجها ؟ اتحب كل انسان مع السيد المسيح أم نقضي مع نيتشه على كل ضعيف قائلين قولهُ بأن المسيحية دين المستضعفين ؟ اندهب مع الداهبين الى أن هدم الدمقراطية سبيل الخلاص للحضارة ، وان صوت الشعب انما هو صوت الشيطان ، ام تنضمُّ الى القائلين بأن الدمقراطية ثمرة من ثمار الارتقاء العلمي الصناعي، لا تفنى الا بفنائه ؟ هل العلم الطبيعي

(١) نص الخطبة التي القاها رئيس تحرير هذه المجلة الاستاذ فؤاد صروف في الحفلة السنوية لجمعية تهذيب الشبيبة السورية ببيروت في ٧ يونيو الماضي

من مقومات العمران او هو خطر عليه لأنه يزيد قوة الانسان من غير ان يولد في نفسه حكمة استعمالها ؟ هل يسيطر الانسان على القوى التي اطلقها او تسيطر هي عليه فتستعبده ؟

هذه هي المسائل التي تمض العقل العصري ، ونحن في محاولة الاجابة عنها نسري في ظلمات من فوقها ظلمات من تحتها ظلمات يتيه العقل البشري في بيدائها !

***

هكذا خاطبت نفسي لما شرفتني هذه الجمعية الكريمة بالدعوة للخطابة في حفلتها السنوية . وقضيت اياماً اقلب هذه المسائل في ذهني لعلي اهتدي في احداها الى قبس من النور . وإني لكذلك اعاني آلام هذه الحيرة ، طرأ على بالي للمرة الأولى ، ان الجمعية « جمعية تهذيب الشبية » تضحكت من غفلتي . وكأن الحيرة التي كانت مستولية عليّ قد استحكمت مني ، فأخذت من جديد اسائل نفسي :

ما الغرض من التهذيب ؟ لماذا تنفق الأموال ، وتشيد المعاهد ، وتدرّ اكف المحسنين ، وتنظم الدوائر والصفوف ، وتقضي الأعوام تذوق فيها صنوف الآلام العقلية ، ثم تخرج من المدرسة ونحن ندرك — اذا كنا على شيء من العقل — مدى جهلنا ؟

ما الغاية القصوى التي يبغيها الطالب وأبو الطالب ؟ بل ما الغرض الذي يرمي اليه الرئيس والأستاذ ؟ أللكسب يبغي الأول العلم ام للزينة ام للقوة ام للمقام الاجتماعي ام للنفع العام ؟ وهل يطلبهُ الثاني لتقويم الاخلاق او لاخراج موظفين للحكومة او لاعداد جنود للوطن او معلمين للمدارس او تلاميذ يذيعون فكرة ويروجون لدعوة ؟

من الواضح ان منوال التعليم يختلف باختلاف الغرض المقصود منهُ . ما اكثر الأغراض وما اعظم الاختلاف بينها ! فالمربي الانكليزي المشهور — الدكتور ارنولد — كان يرى « الوداعة العقلية » غاية التعليم القصوى — وهي صفة لن تستطيع الثور عليها في « رجل ارسطو الثاني » مهما يجهدك البحث . ان غرض نيتشه يختلف اختلافاً شاسعاً عن غرض المعلمين المسيحيين . فهو يربي « للقوة » وهم يربون « للمحبة »

ثم ان الألمان والايطاليين واليابانيين يرون في كل طالب جنديًّا يناضل في سبيل « الوطن » والأميركيين يطلبون « النجاح العملي » والانكليز الدقة في تأدية الواجب على حساب الذكاء . حتى اذا اتفق الباحثون على العناصر التي يجب ان يشتمل عليها الخلق الكامل اختلفوا في نسبة هذه العناصر بعضها الى بعض : فالواحد يقدم الشجاعة والاقدام على الحرص . والثاني يطنب في القوة العقلية . والثالث يضع الدعة واللطف في المقام الأول . والرابع يضع الواجب نحو الامة امام الواجب نحو الذات . فعلينا ان نعرف الغرض الذي نرمي

اليه معرفة واضحة الحدود والمعالم لكي تتمكن من السعي الى تحقيقه سعياً مجدياً

كان النشاط العقلي والجسدي اظهر الصفات في رجل اليونان الامثل . وكان الخمول الجسدي والتفكير الذي تغلب عليه صفة التأمل الهادي اظهر الصفات في رجل الصين الامثل . فكان السياسي اليوناني اذا غُلب على امره في بلده وطرد منه لا يزل على حكم الدهر عليه. بل يقرع حفنة من المشردين امثاله فيصلي الجماعة التي اذلته وطردته نار الحرب . اما المتقفون الصينيون فكانوا اميل الى التأمل والتشكيك والى التمتع بجمالي الجمال تمتعاً هادئاً. وكان موظفهم اذا طرد من منصبه ينطلق الى عزلة على قمة جبل ليظم اشعاراً في مسرات الحياة القروية

فالتعليم الصيني انتج «استقراراً» ولعل هذا ما ينتظر من تعليم قائم على الريبة والشك . اما التعليم اليوناني فانتج تحولاً وحرباً لان المعتقدات التي نعتقد صحتها بكل جوارحنا ونؤيدها بكل قوانا لا تحملنا على الاستقرار بل تدفعنا الى الكفاح في سبيلها . لذلك قضت الحضارة اليونانية على نفسها بايدي ابنائها . اما الحضارة الصينية فاستقرت على ما هي عليه آلاف السنين ولا تزال تنتظر من يقضي عليها من الغرب او من ابنائها المتقفين باساليب الغرب

وكان التعليم اليوناني جرثومة الحضارة الغربية الحديثة حملها العرب بعدما تعهدوها بكل اساليب العناية والرعاية حتى اتصلت اخيراً باليابان — جارة الصين — فجعلها اليابانيون اساساً لنهضتهم الحديثة . ولكنهم جعلوا «المجد القومي» غرضاً لهذا التعليم الديناميّ فاخضعوا كل قوى التلميذ العقلية والجسدية لتمجيد الميكادو وتعظيم الوطن والاستماتة في سبيله

وكلا الموقفين — اي كلا التعليمين — تعليم الصينيين في الطرف الواحد — وتعليم اليابانيين في الطرف الآخر خطر على العمران . فالاول كان يتمادى في التشكيك والريبة حتى يفضيا به الى الجمود . والثاني يتمادى في التحكم والايمان بتحكمه وقوته حتى يصير ابناؤه وهم كالقنابل المنطلقة . اما والارتقاء المتزن هو غرض الحياة الاسمى فالتمادي في التشكيك المفضي الى الجمود لا يجدي نفعاً في ميدانها . اما وقد اصبح العمران — بفضل العلم والصناعة — معقد التركيب محكم الترابط دقيق الاحساس ، فالتمادي في التحكم الذي يجعل الثورة والحرب سبيل الارتقاء الوحيد ، مبعث خطير يهدد الحضارة بالانقراض

ان غرض التعليم ايها السادة يجب ان يكون: «الايمان بان الحصول على المعرفة مستطاع الى حدّ ما ، ولكن بصعوبة كل الصعوبة . وان جانباً كبيراً مما نعرفه او نحسبه معرفة يحتمل ان يكون خاطئاً . وان هذه الاخطاء تصحح بالاختبار والامتحان — كذلك علينا ان نعلّم المتعلم انه حين ينطلق في عمله اليومي لتحقيق رغائبه — يجب ان يكون بالغ الحذر حيث يحتمل ان يكون الخطأ الضئيل باعثاً على ضرر كبير . ومع ذلك لا بدّ من ان تكون رغائبنا

وغرائزنا — اساساً لكل اعمالنا . وهذه الحالة العقلية — حالة الحذر الدائم واليقظة المستمرة لحفظ التوازن بين ما تقضي به رغائبنا وما يمليه عقلنا — حالة دقيقة كل الدقة . انها تحتاج الى اعظم جانب من الثقافة العقلية والرياضة النفسية — ولكنها على دقتها غير متعذرة على من يرضى ان يبذل في سبيلها جهداً خالصاً . هي في الواقع الطريقة العلمية بل هي صميم الطابع العلمي . ان المعرفة — ككل الامور الطيبة في الحياة — صعبة المنال ولكن منالها ممكن . اما التحكم فيني الصعوبة . وأما التشكك فيكر الامكان »

***

من سديم الحياة الاقطاعية في القرون الوسطى ، وبفعل الثورة الفرنسية والثورة الصناعية نشأت اكثر الدول الاوربية الحديثة وتميزت حدودها وانفصلت ثقافاتها . وانك اذا رجعت الى الصفات التي تمتاز بها هذه الدول الجديدة عن أمم العالم القديم رأيت الشعور القومي — سواء في السياسة او في الثقافة — اظهرها مكاناً وابعدها اثراً

اما « القومية » ايها السادة فاسبابها والبواعث عليها بعيدة الغور في الطبيعة البشرية . فالانسان بطبعه ميال الى الخوف من كل غريب عنه ويسعى الى اذيته اذا استطاع مبادرةً ان يؤذي هو اولاً . وهو كذلك اجتماعي ولكنهُ يؤثر الطوائف الصغيرة لان غيرتهُ من كل فرد خارج عن تلك الطائفة وخوفهُ منهُ — وخصوصاً اذا كان ذلك «الخارج» يختلف لوناً او لغة او اقامة — فطرة فيهِ لا تزال طالقة بنفسهِ من ايام التناحر على البقاء الاولى

هذا هو منشأ « القومية » التي يرجع اليها جانب كبير من تاريخ النزاع بين الامم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ولكن بدلاً من أن يعمد المفكرون والمعلمون والفلاسفة الى صقل هذه الميول وتثقيفها واخضاعها لاحكام العقل اي بدلاً من ان يحاولوا طبع التعليم بالطابع العلمي الذي اشرت اليهِ عمدوا الى استثارتها بكل فنون الاثارة الشعرية والنثرية

نرى المفكر من برجهِ العاجي المنيف الذي كان يقطنهُ في القرون الوسطى وشقَّ لهُ طريقاً في ميدان العامة ، واختلط بهم ، فالتهبت في صدره الشهوات التي تلتهب في صدورهم فاستعمل مقدرتهُ العقلية في استنباط العلل التاريخية والفلسفية لتسويغ هذه الشهوات وتبريرها فخلع عليها ثوباً زاهياً من المنطق الخلاب والفلسفة الاخاذة ، والمجد المثير سارياً وراء الجمهور بدلاً من ان يقودهُ ، خائناً بذلك الامانة التي في عنقهِ ، أمانة الترفع عن امور الدنيا والارشاد الى مواطن المثل العليا . ففي انكلترا ينادي كبلنغ الشعوب البيضاء « احملوا حمل الرجل الابيض » أي خذوا على عاتقكم تمدين الشعوب غير البيضاء — اي استعمارها ! وفي اميركا تخترع الفلسفة العملية التي تحدد العمل الادبي السامي بالعمل الذي يمكننا من الفوز في ميدان

التاجر في بيئة معادية . وفي المانيا ينادي شوبنهور ان الجانب من جوانب النفس الذي يقرّر ما هو « الصالح » انما هو « ارادة الحياة » ويدعوه نيتشه « ارادة السيطرة » . ويتفقون جميعاً على ان « ادبية » كل عمل تقاس بمقياس صلاحيته لقضاء المآرب منهُ ، وان الآداب الوحيدة هي الآداب التي تناسب مقتضى الحال

اتعجبون اذاً من ان يقوم في مجتمع هؤلاء روّادهُ المفكرون نزاع على التوسع والسيطرة تدعمهُ حججٌ تاريخية وفلسفية وبيولوجية ؟ اتعجبون اذ نرون روح الوطنية يلهب بكل وسائل التعليم والنشر حتى يكتسح صدور الناس وحتى تصبح اوربا وكأنها على قوهة بركان يتحفز للثوران ! اتعجبون من قيام طبقات الشعوب بعضها على بعضها في سبيل « ارادة الحياة » ! لقد اصبح الرجل لا يقنع بان شرف وطنهِ في حفظ ملكهِ او برلمانهِ . انهُ تعلم ان يشعر ان واجبهُ يحتم عليهِ ان يدافع دون قومهِ وان المجد كلَّ المجد في ذلك وان العار كلَّ العار في التواني عنهُ . واذا الانكليزي يقول ان الله تجلى اولاً للامة الانكليزية . واذا غليوم يعتقد ويصرّح « ان لالمانيا مكانة خاصة في عقل العزة الالهية » . واذا مازيني ينادي بان « ايطاليا دين » . واذا الشعور القومي يتسم بسمة العقيدة الروحية . واذا الحرب لا تنشب بين جيشين مرزّقين ولكنها نزاع وتناحر بين الامم والحضارات !

ايها السادة : اني اؤمن بالوطنية والقومية . اني اؤمن بان ارجلنا يجب ان تغرس في بلادنا وتستمدَّ عصير الحياة من ثراها . ولكنني اؤمن كذلك بالانسانية . اؤمن بان اعيننا الروحية يجب ان ترتفع حتى تستشرف العالم . والمعلم الحكيم في نظري ، سواء كان مدرساً او صحافيًّا او خطيباً او مؤلفاً او واعظاً ، هو من يصقل العواطف الحياشة التي تجري في صدور مواطنيهِ من غير ان يقمعها ؟ هو من يمنح مواطنيهِ عيوناً عقلية يرون بها ان عواطف الامم الاخرى وتقاليدها ليست مناقضة لعواطفهم وتقاليدهم . لا مندوحة عن استمرار الفروق الشبيهة القائمة على الوراثة والبيئة وامّا ما بني فوق هذه الفروق بيد التعصّب والجهل فيجب ان يندثر . ومهمة المعلم ان يدثرهُ . وغرض التعليم القويم أن يقوّض اركانهُ . ان في عالم الروح مستوًى ، اذا بلغتهُ الشعوب عاشت فيهِ عيشة اخاء ووئام . فوق هذا المستوى تحتفظ كل امة بمقومات شخصيتها . ولكنها تدرك اذ ذاك ان هذه المقومات ، وان اختلفت عن مقومات الامم الاخرى ، لا تناقضها . لان الاختلاف في ميدان العلم الصحيح مقبولٌ ولكن التناقض ممنوع . ان للارواح السامية مقامين : وطنها الارضيَّ والمدينة العليا . في الاول نحن ضيوف على رحيل . واما الثانية فنحن بناؤوها . فلا الاسرة تقدَّم على الروح ولا الوطن . الروح هو النور . فارفعه فوق الاعاصير . ولتمزّق السُحُب التي تشاء

ولين مدينة شاحبة منيمة تتراجع الاخضاد عن جدرانها

فانا ازعم ايها السيدات والسادة ان تعليماً غرضهُ إحكام التوازن بين أحكام العقل ونوازع النفس طريق — على وعورته — ممهد للسموّ في نفس الفتى، وللسلام بين طوائف الامة ، وبين امم الارض جمعاء . بل اني ازعم ان هذه الحضارة التي تنعم بحسناتها الكثيرة — وان كنا لا نفتقر لها بعض سيئاتها — تستهدف الى خطرين عظيمين : كلٌّ منهما يستطيع القضاء عليها اذا لم نعمد الى تطبيع نفوسنا وتفوس ابنائنا بهذا الطابع العلمي

اما الخطر الاول فهو حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر ، تكون البواعث عليها رغبة في الدفاع عن شرف الوطن يتغنى بها الشعراء وتمهد الطريق لتوسعه وسيطرته ينادي به الساسيون ، وفوز في ميدان التنازع على البقاء يذهب اليه الفلاسفة

وقد غاب عنهم ايها السادة ان المستنبطات العلمية الحديثة قد ربطت بين شعوب الارض حتى صارت وكأنها امة واحدة . فالفاظ التوسع والتنازع والسيطرة يجب ألاّ تكون في قاموسهم . ان الفاجعة التي تحدث في القطب الشمالي اصبحت بفضل المخابرات اللاسلكية وكأنها حادثة في باريس . فانا اجزع مع زوجة الرائد وابنته لما يحفُّ به من الخطر . وانا اجلُّ شجاعتهُ واقدامهُ في اقتحام عناصر الطبيعة حبًّا بالكشف عن مجهول فيها . وهذا الجزع من جهة والاجلال من جهة اخرى قوة توحّد بين عقولنا ونفوسنا لحظة من الزمان فترتفع على أجنحتها محلقين فوق حدود البلدان وفروق الاجناس

لقد غاب عنهم ان امجاد الروح ، وانتصارات العقل ، أعظم شأناً وانبل قصداً من امجاد القوّاد وبطولة الاجناد

لقد غاب عنهم ان المؤمنين بالعلم والجارين على أحكامه ، والمتفيئين بآثاره ، اخوة عالية عظيمة تعيش على مستوى أعلى وأنبل من مستوى الشرف الوطني الخاص والتوسع القومي الخاص والسيطرة الثقافية الخاصة — ألا وهو مستوى الشرف الانساني والتوسع الانساني والثقافة العامة

اتيحت لي أيها السادة زيارة ردهة المجد النيويوركية من بضع سنوات فوجدت فيها انصاباً لاكثر من مئتين اميركيًّا لم أجد بينها الاّ انصاب ثلاثة من القوّاد ! وقد كانت أمنيتي — ولا تزال — ان استيقظ كلَّ يوم لأرى عدد العلماء والمستنبطين في الارض وقد اربى على عدد القواد ! لأنهُ اذا لم يقضِ العلم على الحرب قضت الحرب على العمران

***

أما الخطر الثاني فهو استهداف العصر الى افلاس روحي أعظم خطراً على مصير العمران من شبوب نيران الحروب بل يكون هو مبعث الحروب ومذكيها

واظهر مظاهر هذا التخلف المؤيد بالارقام عن حضور الاجتماعات الروحية وعدم المبالاة بنواهي الدين الأدبية والاقرار بالعجز عن الوصول الى عقيدة تطمئن اليها النفس، وجعل الآلة السريعة معبوداً يصلى لهُ ويسجد ، واهمال المثل الروحية العليا واستبدالها بما يكفي الشهوات العارضة واستنباط فلسفات لتحلّ محلّ الدين . وكل ما يقال فيها انها فلسفات

ولعلّ هذا التقلقل في مقام الدين ناجم الى حد بعيد عن طول النزاع بين العلم والدين على أمور هي من اختصاص الاول دون الثاني . فلما فاز العلم في اثباتها على نحو معيّن ضعف مقام الدين في عقول الذين يظنون خطأً ان ما نقض هو الدين في ذاته — مع ان المنقوض انما هو علم قديم حلّ محلهُ علم جديد ، كما حلّ علم اليوم محلّ علم الأمس وكما ينتظر أن يحلّ علم الغد محل علم اليوم . أما الدين فان في صميمه شيئاً خالداً مستقلاً عن تطوّر المعرفة الانسانية . ليثبت علم الهيئة أن الأرض ليست مركز الكون . وليثبت علم الحياة ان الانسان ليس سيّد المخلوقات . وليثبت علم النفس الجديد ان مصدر الوعي الانساني وملابساته انما هو تيارات العقل الباطن المكبوتة . ليثبتوا ذلك كلّهُ فلا يضير هذا الاثبات الدين في شيء . بل ان تسليم رجال الدين بهذه الحقائق ، وهم يجلون لنا في مرآتهم العلوية صورة المثل الروحي الاعلى ، يجعل الاساس الذي نستمدّ منهُ تعاليم الانبياء أساساً معقولاً يخصب الاقناع خصباً

فأنا أزعم أيها السادة ان التعليم الذي غرضهُ ترسيخ النزعة العلمية في عقول الطلاب يقترب بهم جدّ الاقتراب من صميم الدين — من المثل الروحي الاعلى. قد يكون الافلاس الروحي فاشياً بين معظم طبقات الناس ولكني لا أرى أثراً لهُ بين طائفة العلماء المحققين. ألم تروا الى مِلِكَن يقول : حددوا «المادة» وأنا اتكفل بتحديد «الروح» . هذا العالم الطبيعي الذي قاس مقدار الشحنة الكهربائية على الالكترون والذي اكتشف اشعة تفوق اشعة اكس مئات الاضعاف في قوة اختراقها للمواد يعترف في دعة صحيحة انهُ لا يدري ما هي المادة . ومِلِكَن في نظرته هذه يمثل طائفة كبيرة من علماء العصر

أما كان صميم الدين ولا يزال علاقة الانسان بربه من جهة وعلاقته بجيرانه من جهة أخرى ؟ وهل في الكون نظرة ابعث على الجلال والاحترام للخالق المبدع من نظرة العالم الذي يدرك شيئاً من أسرار الكون ويدرك قصر ادراكه هذا . أما صفات التطبع بالطبع العلمي فهي الصفات الروحية المثلى : الصبر والصدق والانصاف والاخوة. افخر الانسان بقوته قدرص ساعة واحد من علم الفلك يقتعه بضعفه. أيحتقر قدرته العلمية الكيمياء والطبيعة والطب والهندسة ! أيحسب نفسهُ سيداً بتيهُ على اخوانه كبراً فالطبع العلمي يعلمهُ ان الانسان

وحضارته تزول وأما البحث عن الحق الخالد فعمل ابدي ازلي. فاذا كان روح الحق صميم الدين فرجال العلم اليوم رجال متدينون حقاً. والاكباب على البحث العلمي المجرد حبّاً بالكشف عن الحقيقة هو الظاهرة الروحية العصرية التي تقابل التقشف الديني في العصور الوسطى !

***

أبالعلم تحاول أن تبيد الحرب والعلم نفسهُ يمنّيها ويغذيها ويصب على نارها زيتاً فيزيدها اشتعالاً واضطراماً أبالعلم تحاول أن تبيد الحرب، والعلم يمدُّ رجالها بالمدافع، والدبابات، والغازات، والغواصات، والطيارات ؟ ابالعلم تريد ان تحلّ مشاكل الانسانية والعلم يضع في أيدي أبنائه قوى تجعلهم في قوة الآلهة وخشة الشياطين ؟ ابالعلم تحاول ان تدفع الافلاس الروحي والعلم يبحث في النفوس الشك ولا يعترف بيقين الا يقين الحواس ؟ أبالعلم تحاول ان تزيل المادية والحضارة الصناعية العلمية جذورها مادة وجذوعها مادة وفروعها مادة منطلقة في الفضاء ! قلّب صفحات الحرب الكبرى ! فكل الآلات التي استطاع العقل العلمي ابداعها استعملت لغرض واحد هو التدمير والتقتيل. وفي مئات المعامل العلمية والمصانع ومجالس البحث العلمي والكيماوي أكبّ العلماء على اختراع القوى لاطلاقها تدمر وتميت. عشرة ملايين من الجنود قتلوا في ميدانها. وثلاثة عشر مليوناً من السكان. وعشرون مليوناً من الجرحى. وثلاثة ملايين من الاسرى. وتسعة ملايين من الايتام. وخمسة ملايين من الارامل. وعشرة ملايين من المشرّدين. هذا هو علمك احتفظ به. فانهُ بلاء على الانسانية لا دواء لادوائها!

هكذا يقول المعترضون !

أما القول بان العلم يبعث الحرب ويغذيها فخطأٌ في التفكير. العلم لا ينظر الى الحرب ولا الى السلم. فهو يعطينا يد الاعدة ويداً اخرى للمفرقعات. يجهزنا من ناحية باشعة اكس ووسائل الجراحة والمخدّرات الطبية ومن ناحية اخرى بالمدافع الرشاشة والغاز الخانق والمنيات. ولكن ما يجهزنا به العلم للآلي السلمية يفوق اضعاف اضعاف ما يجهزنا به للاعمال الحربية. المفرقعات تستعمل في الحرب للهدم والقتل ولكنها تستعمل في السلم في مئات المطالب العمرانية من حفر الانفاق الى شق الترع الى فتح المحاجر. والفولاذ لا يحصر استعماله في صنع الاسنة والرماح بل هو يستعمل ايضاً في صنع المحاريث والخطوط الحديدية والسيارات والجسّادات ومئات الادوات اللازمة في الصناعة والزراعة. فالعلم يمدّ نفسه لا يخدم اله الحرب دون اله السلم، وانما يعود هذا الفرق الى نفوسنا، وشهواتها، واغراضها الادبية

السر هنا معروف واعراض انداء مكشوفة : ان قوة الانسان قد سبقت حكمتهُ في احكام استعمالها. والواقع ان العلم لم يغيّر رغبات الانسان وانما مهّد لهُ طريق تنفيذها.

وهنا مكان التعليم الذي اقول به . قد لا يقمع هذا التعليم رغبات الانسان وشهواته ونحن لا نريد ان نقمعها — ولكنهُ يصقلها — انهُ يخضعها لنواهي العقل — انهُ يحكم الاتزان بين ما تقضي هي به وبين ما يمليه العقل . وهذه هي الحكمة . فاذا كانت هذه الحكمة وليدة التعليم فارتقاء العلم وتعدد المستنبطات لا يكون الا خيراً . والواقع اننا لا نستطيع ان نسير بالحضارة الى اغراضها العليا من دون العلم . ان لهُ من الوجهة العقلية لذة لا تضاهى بسهولة بعد تذوقها . ومن الوجهة العملية غذا ضروريًّا لكل اسباب العمل والراحة . والحق يقال اننا قد وصلنا الى حالة لا نستطيع معها شعوب الدنيا ان تحتفظ بمستواها المعاشي الا بترقية العلم وتوسيع نطاقه . ولكن مع هذا يجب ان يسير التعليم المطبوع بالطابع العلمي الذي يولد الحكمة في النفوس ويقيها من نزغات الشيطان

أما القائلون بأن الحضارة العلمية الصناعية حضارة مادية فيخطئون أيضاً

إن أساس الحضارة الغربية أساس روحاني : لقد اعترف كنفوشيوس حكيم الصين — وجاراه في ذلك طائفة كبيرة من الفلاسفة — بأن أدوات الحضارة لها أصل روحي . لأن الفكر مصدرها كلها . فانا لا أرى ان صورة زيتية من تصوير روفائيل مادية اكثر من لحن أبدعهُ بيتهوفن . أنا لا ارى ان سيارة حشها فورد مادية اكثر من قصيدة نظمها شلي . أنا لا أرى ان باطحة ولورث مادية اكثر من الهرم الكبير أو كنيسة نوتردام . أنا لا أرى مكتشفات مندل في الوراثة مادية أكثر من مؤلفات كانت . انها كلها ادوات لازمة للحضارة وقد أبدعها الذكاء البشري متصرفاً بالمادة والقوة تحقيقاً لحاجة من حاجات المعاش او تلبية لدافع داخلي يدفعهُ لتمثيل المثل الاسمى أو لاكفاء ميله الى البحث والتنقيب . لقد أله الاقدمون بروميثيوس لانه أخذ النار من الآلهة ومنحها للبشر وقدموس لانهُ استنبط الكتابة . ألهوهما لانهما يمثلان تلك الشعلة الالهية في الانسان شعلة العقل المبدع الذي يستنبط الآلات والادوات ويبني بها العمران . اذن اين نضع علماءنا ومستنبطينا من غليليو الى نيوتن الى وط الى مورس الى بل الى أديسن الى ماركوني الى فورد . ولماذا نقول ان هؤلاء رواد عصر مادي وان بروميثيوس وقدموس الهان ؟ !

ثم ان طريقة الحضارة العلمية الصناعية هي طريقة روحانية . فالعلم ينتقي العقول فيدنيها من القدس الاعلى لانهُ يجهزها بوسائل للبحث عن الحق الحق . وهو كذلك يعلمنا الا نقنط حين نحدق بنا المصاعب . لان العلم لا يتقدم الا بالبحث الدقيق والصبر الجميل والتغلب على المصاعب . وكل خطوة يخطوها العالم الى الامام توقظ فيه ذلك الحبور الروحي الذي كان ينسب الى الحكماء الاقدمين حين تجلي الآلهة لهم . واكثر عناصر العلم روحانية هو هذه الرية في

كل شيء قبل تصديقه وهذه الشجاعة الادبية على الريبة قبل توافر الادلة على صحته. ولكنها ريبة مبدعة لا تنكمش عند نفسها بل هي خطوة مباركة في سبيل الاكتشاف والاستنباط والبناء[1]

ثم ان غرض الحضارة العلمية غرض روحاني . هو تحرير الناس من رهبة الاستعباد للقوى الطبيعية لان تقدم العلوم وما يبنى عليه من المخترعات والمستنبطات يوفر للجسم الراحة والرفاهة فيتحرر العقل وتتسع امام النفس آفاق المعرفة والفهم . ولكن اذا لم يبلغ الناس درجة من الحكمة تعلمهم كيف يقضون اوقات الفراغ، فالخوف كل الخوف عليهم أن يكون نصيبهم الضجر الذي لا يكون الا نصيب النفي الخامل أو المتنفس في الشهوات بعد الكلال

كل انسان يتعلم تعليمين : الاول يعلمنا كيف نرتزق . والثاني يعلمنا كيف نعيش . وهذان الغرضان لا يلتبسان في عقل الرجل المثقف تثقيفاً صحيحاً . كلٌّ منا — او اكثرنا على الاقل — يهمهُ ان يرتزق . وقد كان الناس في الزمن السابق يرتزقون في الحقل والدكان او بالرياضة والتمرن في مخزن تاجر او مكتب محام او عيادة طبيب . أما وقد اتسع نطاق العلم وتعددت مطالب الحياة وتشعبت امانيها فصرنا نفضل ان نختصر الطريق بالذهاب الى المدرسة او الكلية لنتعلم في بضع سنوات عملاً معيناً او حرفة خاصة . ولكن هذا يجب ألاّ يحجب عن بصيرتنا اننا بهذا نتعلم حرفة او تجارة . هذا هو التعليم الاول . وهو غير التعليم الذي لا بدَّ منهُ لنعرف كيف نعيش متى كفلنا اسباب الارتزاق الذي لا مندوحة عنهُ لكي نستمدَّ من الحياة اطيب اطايبها . والتعليم المطبوع بالطابع العلمي يمهد لنا السبيل الى ذلك ولو شغل الحياة بطولها . بل لا بدَّ لهُ من ان يشغل الحياة بطولها . لاننا قرَّرنا في وصف غرض التعليم : أن الحصول على المعرفة مستطاع الى حدٍّ ما ولكن بصعوبة كلّ الصعوبة . وان جانباً مما نعرفهُ او نحسبهُ معرفة يحتمل ان يكون خاطئاً . وان هذه الاخطاء تصحَّح بالاختبار والامتحان . الا يشغل كلُّ هذا الحياة بطولها ؟ !

ايها السادة : لقد أبدعت الثورة الصناعية والثورة الفرنسية العجائب في عمراننا الحديث . انهما فتحتا أمام كل الطبقات في كل الشعوب ابواباً جديدة للعيش . وجعلتا الدمقراطية مثل الامم الاعلى . وحوَّلتا الوطنية الى قوة عنيفة تكتسح صدور الشعوب

فالتطبع بالطابع العلمي في شعبتيه الاولى والثانية — لا مندوحة عنهُ لسير الدمقراطية السياسية سيراً مرضياً . ولانشاء القوية الرشيدة التي تؤيد السلام . ولاعداد النفوس لاتقان وسائل الثورة الصناعية وتوسيع نطاقها والتمتع بفوائدها الروحية . هذا التعليم يمهد للاجيال المقبلة سبيل التفكير الصحيح ، والعمل المثمر ، والاخاء العام

(١) هذا الرأي في الحضارة الغربية هو رأي الحكيم الصيني المعاصر هوشه